الفصل الأول

الحياة الثقافية والفكرية

في القدس في العصر العثماني

إن تسليط الضوء على الحياة الثقافية والفكرية في القدس (زهرة المدائن)، في العصر العثماني ويبرز البعد التاريخي المكاني والزماني لأولى القبلتين كي تبقى حاضرة في الذهن العربي، وليتعرف الجيل الجديد تاريخه الحضاري العريق وكنوزه الثقافية وإسهاماته في الحضارة العربية والإسلامية، كما يود البحث إبراز أهمية أدوات المعرفة الجماهيرية كالتربية والتعليم والطباعة والصحافة والمكتبات في رفد الحياة الثقافية والحفاظ على التراث الحضاري المقدسي.

وتأمل هذه الدراسة أن تسهم (ولو بالقليل) في إظهار أهمية القدس التاريخية والدينية والحضارية، والتي دفعت المنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة ((اليونسكو)) إلى تسجيلها في عداد الممتلكات الثقافية العالمية التي يجب الحفاظ عليها وصيانتها وترميمها، وكذلك من خلال اختيار القدس عاصمة للثقافة العربية لعام 2009 وإطلاق فعالياتها الثقافية والفكرية.

وخلصت الدراسة إلى أهمية دور المسجد الأقصى كمركز ديني وعلمي في إغناء الحياة الثقافية والفكرية لدى المجتمع المقدسي، وشكلت القدس سياجاً ثقافياً معرفياً قدمت من خلاله الكثير من الأعلام في مجالات العلوم المختلفة.

الحياة الثقافية والفكرية في القدس في العصر العثماني (1517 – 1917)

مقدمة:

أولاً: مصادر الحياة الثقافية في القدس والدراسات السابقة.

ثانياً: الأوضاع الثقافية في القدس بين المماليك والعثمانيين.

ثالثاً: أهمية التربية والتعليم في تطوير الثقافة المقدسية.

القدس مدينة عربية عريقة بتاريخها الحضاري وتراثها الثقافي والعمراني، وهي تنفرد بوضع وخصائص تميزها عن أي مدينة أخرى، وهي عين القلب من العالم الإسلامي جغرافياً ودينياً، إنها مدينة الأنبياء والرسل، ومهبط الديانات السماوية الثلاث، لذا فهي مقدسة من جميع المؤمنين بالرسالات السماوية.

كانت القدس بحق مهداً لأقدم الحضارات وأعرقها، وتدل أسماؤها الشائعة على عروبتها فالقدس لفظة جذرها كنعاني جاءت من قادس أو قادش أي المقدسة، والتقديس نابع - بلا شك- من مكانتها الدينية في الإسلام والديانات الأخرى، سكنها اليبوسيون – وهم فرع من الكنعانيين – في الألف الثاني قبل الميلاد. وفي عهد أحد ملوكهم (ملكي صادق) ظهرت في المدينة أول طائفة اعتنقت التوحيد برعاية ملكي صادق، فوَّسع المدينة وأطلق عليها (أورسالم) أي مدينة الإله سالم[1].

أما الاسم الثاني فهو بيت المقدس وهو الاسم الذي دعاها به العرب المسلمون فهي أولى القبلتين وفيها ثالث الحرمين وإليها كان الإسراء والمعراج، وإيلياء هو الاسم الذي عرفها به العرب زمن الفتح وكتبه عمر بن الخطاب في العهدة العمرية، أما الاسم القديم للقدس (أورشليم) أي مدينة الإله سلم وقد ورد في نصوص اللعن المصرية العائدة للقرن التاسع عشر ق.م، كما تذكره رسائل العمارنة في القرن الرابع

(1) انظر سهيل زكار، التوراة، ط. دمشق، 2007، ص7-64.

عشر[*]، والخريطة الموجودة في آخر (التوراة) الكتاب المقدس، والتي تبين أن الهيكل يقع تحت المسجد الأقصى بكل حدوده، إنما هي خريطة مفتعلة، ومن رسمها هو العالم اليهودي إسحق نيوتن عام 1725م ((صاحب نظرية الجاذبية المعروفة)) وليس كما يزعمون أنها رسمت ق.م.[1]

ويبدأ تاريخ القدس المكتوب من القرن الثامن قبل الميلاد، في عام 705 ق.م وفقاً للمعطيات الأثرية الحديثة التي نتولى تفسيرها بعيداً عن الإسرائيليات، وصل الملك الآشوري سنحاريب القدس وأخذ الجزية من ملكها حزقي إيل وشعبها، وفي عام 587 ق.م أحرق الملك الكلداني البابلي نبوخذ نصر أورشليم وسبى أهلها، ودمر هيكلها، وغنم كل ما فيه، وسبى قسماً من سكانها (وهو مايعرف بالسبي البابلي لليهود)[2].

ولشدة اهتمام العرب بمدينة القدس فكر الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك بنقل عاصمة الدولة العربية الإسلامية إليها*، وعندما احتل الفرنجة القدس عام 1099م. ارتكبوا المذابح وقتلوا العرب المسلمين (لأنهم كفار) والمسيحيين لأنهم ((هراطقة)) ولما قام صلاح الدين بتحرير القدس من الفرنجة سمع العالم كله عن تسامح العرب ومعاملتهم الفريدة للفرنجة.

(*) الذي ورد في نصوص اللعن هو أشاميم وتعني بلاد الشام، لكن جرى اعتماد التمويم بدلاً من التنوين.

(1) انظر: محمد بهجت القبيسي، القدس مملكة السماء، في: صحيفة الوطن السورية، دمشق، العدد(632) 2009/4/23، ص14.

(2) – انظر الموسوعة العربية، المجلد الخامس عشر، دمشق،2006، ص251.

(*) وهذا موثق من خلال ترجمة سليمان بن عبد الملك في كتاب "تاريخ دمشق" لابن عساكر و"الأنس الجليل" للحنبلي.

كانت القدس محور اهتمام صلاح الدين فيذكر مؤرخه ابن شداد أنه كان لديه من القدس المقيم المقعد فهي كانت همه الوحيد، وفي الحقيقة هذا ينطبق تمام الانطباق على القائد الخالد حافظ الأسد الذي كان يضع دائماً خلف مكتبه صورة حطين ويتطلع دوماً إلى حطين جديدة، وكانت القدس قضيته المركزية أوقف جل اهتمامه بها كرمز وكجوهر للقضية الفلسطينية[1].

يكمن هدف هذا البحث في دراسة حياة القدس الفكرية ومشهدها الثقافي في العصر العثماني من خلال دراسة الجوانب الثقافية كالتربية والتعليم والتي تشمل المدارس والعلماء والطلاب والمساجد والزوايا والربط، وإبراز جوهر المكتبات والطباعة والصحافة وحركة الترجمة ودورها في الحفاظ على التراث المقدسي وإغناء الثقافة في القدس، وتسليط الضوء على المدينة التي عاشت أوج ازدهارها ومجدها على امتداد الحكم الإسلامي لها الذي امتد زهاء أربعة عشر قرناً، إنها القدس التي بلغ ما قد كتب عنها آلاف المجلدات والكتب والوثائق المحفوظة في الأرشيف العثماني باسطنبول[2].

حظيت القدس باهتمام كبير في جميع أنحاء العالم، ولم يكن هذا الاهتمام دينياً فقط، ولكنه اتسع ليشمل اهتمامات أخرى حضارية وثقافية واجتماعية وسياسية وغيرها، ورغم اختلاف الدوافع من زمن إلى آخر ، إلا أن المدينة بقيت مسرحاً لأحداث عظيمة مازالت موضع بحث

---

(1) انظر نجلاء دنورة، ندوة حوارية عن القدس في التاريخ في صحيفة الثورة، دمشق، العدد 13817 ، 2009/1/19.

(2) عيسى القدومي، الأرشيف العثماني وكنوز تاريخ القدس، في مجلة المعارج، العدد107، 2008، ص 730.

وتقويم حتى اليوم، ومازالت مدينة تنبض بالحياة، لم ينقطع ماضيها عن حاضرها.

أولاً: مصادر الحياة الثقافية في القدس والدراسات السابقة:

ظهرت عدة بحوث تاريخية وأدبية واجتماعية موثقة أحياناً، من رحالة ومؤرخين ومهتمين هدفت من خلالها دراسة المجتمع المقدسي في العصر العثماني، ولاشك في أن مصادر الحياة الثقافية والتعليمية في القدس إبان العصر العثماني (1517- 1917) اعتمدت على الثقافة العربية الإسلامية بالدرجة الأولى، فمن ذلك كتب الأخبار والتراجم والرحلات، وكذلك كتب الفتاوى الشرعية الإسلامية، وقد وفرت سجلات المحاكم الشرعية التي كُتبت بالعربية مصدراً محلياً واسعاً ومباشراً لدراسة مدينة القدس، وأعطت الباحثين القدرة على الاستفادة من وفرة المعلومات التي احتوتها سجلات محكمة القدس الشرعية، ويمكن عن طريقها رصد جوانب الحياة المختلفة من إدارية واقتصادية واجتماعية وتعليمية وثقافية، وهذا المصدر المحلي يسدُّ النقص في المادة التي تقدمها كتب التاريخ عادة، ويعطي تفاصيل دقيقة عن مظاهر الحياة اليومية والأماكن والجزيئات التي يغفلها عادة المؤرخون، والرحالة الذين يقدمون الصورة من منظورهم الآني المحدد الزمن[1]

ويعدُّ الأرشيف العثماني في استانبول من أهم المصادر في فهم الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لمدينة القدس

---

(1) زياد المدني، مدينة القدس وجوارها1800–1830، منشورات بنك الأعمال، عمَّان 1996، ص17.

(*) حسب ماذكر، الباحث التركي أحمد زكي أوزجي المختص في الوثائق العثمانية في استانبول في مجلة المعارج، المرجع السابق،ص71 .

ودراستها، وأهمية هذه الوثائق تنبع من احتوائها الكثير من المعلومات عن القدس ومخططات الصهيونية للاستيلاء عليها منذ منصف القرن التاسع عشر، فقد أولت الدولة العثمانية اهتماماً كبيراً بالوثائق والسجلات في عهد السلطان مصطفى- القرن الثامن عشر بإنشاء الخزينة الخاصة بالوثائق، ثم أنشئ الأرشيف أو خزينة الأوراق في عهد السلطان عبد الحميد ويحتوي هذا الأرشيف على مئة مليون وثيقة عن الوطن العربي(*)، وهناك خزانة خاصة بوثائق القدس وفلسطين في أواخر العصر العثماني، وتؤكد هذه الوثائق أن الدولة العثمانية وعلى رأسها السلطان عبد الحميد الثاني لم يفرطا في القدس على الرغم من كل الضغوط التي مورست عليهما، وقد استفاد بعض الباحثين الأجانب من هذه الوثائق التي كتبت عن البلاد العربية **وقاموا ببعض الدراسات المتعلقة بها كالباحث البريطاني برنارد لويس الذي كتب بعض البحوث في هذا الشأن منها:**

- (الأرشيف العثماني كمصدر لتاريخ البلدان العربية) و(دراسات في التاريخ العثماني، كما وضع أوريل هايد (Uriel Heyd) وهو باحث يهودي دراسة عن تاريخ فلسطين ضمَّنها نماذج من الفرمانات (المراسيم) العثمانية المتعلقة بفلسطين، وذلك في كتابه (فلسطين العثمانية 1552- 1626) الذي صدر عام 1960.[1]

كما تزودنا كتب الرحلات بمعلومات غزيرة وهامة عن القدس في العهد العثماني فترصد لنا اهتمام المسلمين ببناء المساجد في القدس، وتنبه على موضوع الأوقاف الإسلامية التي لا يمكن التصرف بها، حتى تبقى المدينة المقدسة عربية إسلامية أبد الدهر، ثم تعطينا أهمية خاصة

---

(1) عيسى القدومي، المرجع السابق، ص71-73.

للحياة الاجتماعية وعلاقة سكان القدس ببعضهم بعضاً وظهور الطرائق الصوفية المختلفة، وارتباطها بعناصر السكان المحليين، وهذا الجانب يشير إلى استمرار الشخصية الثقافية- المميزة للمدينة المقدسة، والتي شاركت فيها كل قطاعات الطوائف بدرجات متفاوتة.

وقد زار الرحالة التركي (أوليا جلبي) القدس عام 1670 فقال ((القدس بلد عظيمة، هواؤها عليل، وماؤها عذب، وسكانها نضار الوجوه. وفيها 240 مسجداً، و7 دور للحديث و 10 دور لتعليم القرآن، و40 مدرسة للبنين، و6 حمامات، و18 سبيلاً للماء وتكايا لسبعين طريقة إسلامية)).[1]

كما زار القدس العديد من الشخصيات العربية والعالمية مثل زيارة الشيخ عبد الغني النابلسي للقدس عام 1690، ورحالة إنكليزي اسمه هنري مندريل. زار القدس في سنة 1696 في عيد الفصح وأعجب بها، كما زارها المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون وتحدث عنها مطولاً في كتابه ((حضارة العرب)) في سنة 1884.

وكان للزيارة الهامة التي قام بها الإمبراطور الألماني غليوم الثاني إلى القدس عام 1898 والتي دامت أحد عشر يوماً صداها في العالمين العربي والإسلامي حيث زار كنيسة القيامة والمسجد الأقصى ودشن كنيسة ألمانية إنجيلية وقال(إن مجيئي إلى القدس الشريف لم يكن مبنياً على غايات سياسية، بل لأنني كنت أميل إلى زيارة هذه المدينة المقدسة التي مات فيها السيد المسيح، ثم قام وصعد إلى السماء).[2]

---

(1) بلادنا فلسطين، بيروت، دار الطليعة 1971، ج10،، ص53.

(2) إبراهيم الأسود، كتاب الرحلة الامبراطورية في الممالك العثمانية، تقديم خيري الذهبي، منشورات وزارة الثقافة- دمشق 2008، ص64.

وأكدت هذه الزيارة الصداقة الألمانية – العثمانية وأكد الإمبراطور الألماني في خطبة له في دمشق ((بأنه يُطمئن السلطان والثلاثمئة مليون مسلم أنهم سيجدون في إمبراطور ألمانيا صديقاً لهم على الدوام))[1]، ثم زار ضريح البطل صلاح الدين الأيوبي ووضع عليه إكليلاً من الزهور، وأمر بوضع مصباح من الفضة للضريح هدية له بوصفه أحد المعجبين إعجاباً بالغاً بالبطل المسلم.

وقد نشر عدد من الأوربيين بحوثهم في كتب مستقلة أو في مجلة Palastine Exploration Found وفيها معلومات قيمة عن الأوضاع الثقافية في القدس.

ومن بين الكتابات الحديثة والعديدة التي وصفت مدينة القدس نجد كتب عارف العارف عن (القدس) والذي كان متمرساً بخبرات المؤرخ الإسلامي الموسوعية، وتقاليده الكتابية، فضلاً عن متابعة نتائج الدراسات التاريخية واللغوية والآثارية الحديثة نموذجاً لذلك.

وكتاب كارين ارمسترونج (القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد) والتي عالجت فيه أهمية القدس السياسية والدينية والبنى الاجتماعية فيها. كما يعدُّ كتاب زياد المدني (مدينة القدس وجوارها خلال المدة 1800 – 1820) من أهم الدراسات التي استفادت من المعلومات التي احتوتها سجلات محكمة القدس الشرعية.

ثانياً: الأوضاع الثقافية في القدس بين المماليك والعثمانيين:

عاشت القدس عصرها الذهبي في مجالات الثقافة العربية والإسلامية أيام الحكم المملوكي، ودخلت القدس في حوزة المماليك

(1)Alex Carmel: Der Kaiser –reist ins Heilige Land, Stuttgart 1991 S.170.

سنة 651 هـ/1253م. وحظيت باهتمام ملحوظ وقام سلاطينهم بزيارات عدة للقدس، وكان الظاهر بيبرس في طليعة السلاطين الذين اهتموا بالمدينة، فقد زارها مرتين، كما زارها السلطان قلاوون والناصر محمد بن قلاوون والأشرف قايتباي وأقاموا بها منشآت دينية ومدنية عديدة، فقد وُجِدَ بالقدس عدد كبير من مؤسسات التعليم المتخصصة والعامة، وعاش فيها عدد كبير من كبار العلماء.[1]

وازدهرت الحركة الثقافية في المساجد والمدارس والكتاتيب، وبعض المؤسسات العلمية كالمشافي (البيمارستانات) وغيرها، أما الموضوعات العلمية والتدريس فكانت جلها ينصب في نطاق الثقافة العربية والإسلامية وتركزت حول الدراسات القرآنية وعلم الحديث، واللغة العربية وآدابها، وكتب التاريخ والتراجم والسيرة، والعلوم الرياضية كالجبر والهندسة والفلك. وغدت القدس أيام المماليك من أهم المراكز العلمية في العالم الإسلامي، فكان يفد إليها الدارسون (الطلاب) والمدرسون(المعلمون) من مختلف الأقطار.[2]

وحظيت علوم اللغة العربية باهتمام خاص في القدس، وتركزت عناية العلماء على دراسة كتب الأدب والنحو والصرف والبلاغة، وكان من هذه الكتب "الكتاب" لسيبويه، و"الإيضاح" في النحو لأبي علي الفارسي، وكتاب "الجُمل" لعبد القادر الجرجاني و"ألفية بن مالك" و"شذور الذهب" لابن هشام، وكان كتاب إحياء علوم الدين للإمام أبي

---

(1) سهيل زكار، القدس في التاريخ من العصر المملوكي حتى العصر الحديث، الجزء السادس، منشورات القيادة الشعبية- طرابلس،2000، ص16.

(2) كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، دار سطور للنشر- القاهرة، 1998، ص509.

حامد الغزالي مع كتب محي الدين بن عربي أهم كتب التصوف التي دُرسَّت في القدس.[1]

وقد زاد اهتمام المماليك بالقدس فجعلها السلطان برقوق نيابة مستقلة سنة 1393م، تابعة للسلطان في القاهرة مباشرة، بعد أن كانت تابعة لنيابة دمشق، وبنيت فيها منشآت تعليمية بلغت زهاء خمسين مدرسة وسبعة ربط وعشرات الزوايا، فكانت أروقة الحرم القدسي والمدارس التي أُقيمت هي مراكز الحياة الثقافية والتعليمية، وكانت منظَّمة إلى أبعد الحدود، فقد كان في كل مدرسة هيئة تدريسية يقف على رأس السُلم الوظيفي شيخ المدرسة ثم يتبعه المدرسون فنوابهم وأخيراً المعيدون.[2]

والتحق الطلاب في القدس في المدارس التي يحبونها، وانكبوا على نوعية الدراسة التي توافق هواياتهم، واختلفت مدة الدراسة من تخصص إلى آخر، ويحصل الطالب على شهادة الإجازة بعد انتهاء دراسته بتوقيع شيخه، وقد تكون الإجازة عامة أو متخصصة بفن من الفنون، وكان لهذه الإجازات مكانة محترمة في المجتمع المقدسي، وقد اُشترط للوصول إلى مرتبة المشيخة العلم الغزير والسمعة والسلوك الحسن، والقدرة العلمية على التدريس، وكان أمر التعيين في هذه المرتبة العلمية محصوراً بالسلطان، ويتم بمرسوم صادر عنه، كما كان الشيخ العالم يتقاضى راتباً محدداً من أموال أوقاف المدرسة التي عُيَّن فيها.[3]

---

(1) سهيل زكار، المرجع السابق، ص96

(2) عبد الجليل عبد المهدي، المدارس في بيت المقدس، عمّان 1981، ص113.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة، المطبعة الأميرية، 1920، ج5، ص464.

أما المدرَّس فقد كان يدَّرس أكثر من مقرر بشرط الحصول على الإجازة في التدريس فضلاً عن السمعة الحسنة والمقدرة العلمية والعطاء، وأما المعيد فقد كان يتولى إعادة الدرس الذي ألقاه المدرس، ويشرح ما صعب فهمه على الطلاب. لذا كان من شروط تعيين المعيد القدرة على توصيل المادة إلى الطلاب مع حسن الخلق.[1]

أما أهم المدارس في القدس في العصر المملوكي فهي المدرسة الصلاحية التي أنشأها السلطان صلاح الدين سنة 1192م، وكانت أعظم معاهد العلم في القدس، وظلت كذلك لقرون طويلة، وكانت تُدرس مختلف العلوم الإسلامية والفنون درّس فيها كبار العلماء والقضاة من أمثال القاضي محي الدين الغزي، وكذلك الشيخ جمال الدين الباجريقي من الموصل، وشهاب الدين الحلبي، وتسلم التدريس والإعادة في الصلاحية عدد كبير من مشاهير العلماء، كان لهم دورهم الكبير في الحركة الثقافية في القدس وقد تمكن عدد من المعيدين من الوصول إلى المشيخة.[2]

وكذلك المدارس الكريمية والعمرية والبكرية والمأمونية والرشيدية والسلطانية. والتي أدّت دورها الهام في نشر الثقافة والفكر في القدس وفي كل أرجاء فلسطين، بل عم نفعها معظم بلاد الشام وامتد أثرها إلى مصر كذلك.

---

(1) ابن واصل الحموي، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب – القاهرة 1953، ج4، ص208.

(2) عبد الرحمن العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل- عمان1973، ج2، ص114

حظيت مدينة القدس باهتمام العثمانيين، وأطلقوا عليها اسم ((القدس الشريف)) نظراً إلى أهميتها الدينية والاقتصادية، وفتحت معركة مرج دابق عام 1516 أبواب القدس أمام السلطان سليم حيث زار القدس، ورحب أهلها بالسلطان العثماني الجديد وتحسنت الأحوال في القدس تحسناً كبيراً في عهد ابنه السلطان سليمان القانوني (1520- 1566) وتطور الاقتصاد وازدهرت التجارة حيث فرض العثمانيون القانون والنظام في فلسطين وتمت السيطرة على تخريب البدو للمناطق الريفية وقُسمت فلسطين إلى ثلاث مناطق (صناجق) تشمل القدس ونابلس وغزة وكانت جميعها جزءاً من ولاية دمشق في عهد السلطان سليمان الذي اهتم بالقدس اهتماماً خاصاً وأقام فيها منشآت، منها سور القدس الذي دامت عمارته خمسة أعوام، ومساجد وأسبلة، وعمَّر كذلك قبة الصخرة، والمدرسة الرصاصية ورمم القلعة وبنى ((محراب النبي)) غربي الصخرة.[1]

وكانت زوجة السلطان سليمان واسمها روكسلانة وهي يهودية من أصل بولوني قد اتخذت في القدس عام 1551 تكية هامة هي تكية خاصكي سلطان، والتي شملت مسجداً ورباطاً ومدرسة وخاناً ومطبخاً يزود طلبة العلم والمتصوفين والفقراء بوجبات مجانية.[2]

وتفيد الإحصاءات المتوافرة أن عدد سكان فلسطين قد تضاعف ووصل إلى نحو 300 ألف نسمة خلال القرن الأول من حكم العثمانيين، وشهدت فلسطين ازدهاراً زراعياً وتجارياً ملموساً، ونشطت حركة الحج نتيجة لاستتباب الأمن على الطرق، غير أن ذلك كله لم يدم طويلاً،

---

(1) مصطفى الدباغ، المرجع السابق، ص9.

(2) كارين أرمسترونج، المرجع السابق، ص528.

وبدأت تظهر منذ مطلع القرن السابع عشر علامات الضعف على الدولة العثمانية بعد وفاة سليمان القانوني وتسلط قادة الجيوش (الانكشارية) على السلطة، وهذا انعكس على القدس والحياة الثقافية والتعليمية فيها، إذ إنّه بدءاً من القرن الثامن عشر الميلادي أخذت مدارس القدس التي أنشأها الأيوبيون والمماليك تضمحل بسبب اضمحلال العقارات الموقوفة عليها، ووصلت حالة الشعب المعيشية في هذا القرن إلى أدنى مستوى على الرغم من ظهور عدد من العلماء البارزين.[1]

ويعزو المؤرخ سهيل زكار حالة التراجع في الحياة التعليمية إلى ((أن القدس قد تأثرت كثيراً بعد استيلاء العثمانيين عليها، لأن مصر وبلاد الشام، كانتا مركزاً لجميع أوجه نشاطات الحياة في أثناء العصر المملوكي، وتمثلان المرجعية العربية والإسلامية، وتمتلكان جميع الإمكانات و((الكوادر)) الغنية والعلمية والإدارية لكن بعد الاحتلال العثماني فقدتا معظم ذلك، حيث ذهب كثير من الفنيين والحرفيين المهرة إلى الأستانة، ونُهبت المكتبات ودور العلم، ونقلت معظم كنوزها التراثية والثقافية إلى استانبول حيث خلاصة الذخائر العربية والإسلامية وجُّل مخطوطات المكتبة العربية وبذلك تكون قد انتقلت بلاد مصر والشام من القلب إلى الهامش، فكان الانحدار المروع بعد الازدهار الثقافي، وانتشر الجهل والأوهام والأمية، وأصيب العقل العربي بالبطالة))[2]

على أن الأمر لم يتوقف في مجال الحياة التعليمية والثقافية تماماً، إذ إنَّ ما بقي من مدارس ومساجد وخاصة المسجد الأقصى

---

(1) عمر سعادة، فلسطين في التاريخ الإسلامي، دمشق، دار الفكر 2008، ص129.
(2) سهيل زكار، المرجع السابق، ص164.

المبارك، وقبة الصخرة المشرفة، ثم المؤسسات التعليمية الصوفية من خوانق وربط وزوايا، وإلى جانب المؤسسات التعليمية كانت هناك مكتبات عامة وخاصة، وفي مقدمة المكتبات العامة- من حيث الأهمية – تأتي مكتبة المسجد الأقصى، أما المكتبات الخاصة فتتمثل في مجموعة الكتب التي أقتناها وأفاد منها كبار العلماء، وقد أسهمت جميعها مع حركة الترجمة والتعريب في بناء الحياة الثقافية لأهل القدس خلال العصر العثماني.

ثالثاً- أهمية التربية والتعليم في تطوير الثقافة المقدسية:

تبرز أهمية التربية والتعليم في تطور الثقافة المقدسية لما في القدس من مؤسسات تعليمية تنهض بها كالمعاهد والمراكز التعليمية من مدراس وخوانق وربط وزوايا وفي مقدمتها المساجد، ولاسيّما المسجد الأقصى المبارك، وقبة الصخرة المشرفة، وبعد ذلك المؤسسات التعليمية الصوفية، وكانت القدس في العصر العثماني نقطة جذب ومركزاً ثقافياً مهماً لعدد كبير من العلماء والمدرسين وطلاب العلم ولاسيّما سورية ومصر والمغرب العربي، وكانت تُدَّرس في هذه المراكز العلوم الشرعية وعلم الحديث والتفسير والقراءات المختلفة واللسانيات كالنحو والصرف واللغة والآداب العامة.[1]

ويجدر الإشارة إلى أن القدس لم تعرف قبل سنة 1869 الحياة التعليمية بالمعنى الحالي المعاصر لهذه الكلمة إلا بعد أن استجابت الدولة العثمانية للضغوط الأوروبية، فقامت بحركة إصلاحات على الصعيد التعليمي، وأنشأت (إدارة المعارف) والتي تسمح بافتتاح المدارس

(1) حسن الحسيني، تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري، دراسة وتحقيق سلامة النعيمات، عمان 1985، ص10.

الحكومية والمدارس الإسلامية الخاصة، والمدارس الخاصة التبشيرية كمدراس الراهبات الفرنسيسكان واليونان ومدرسة يهودية للأشكناز.[1]

ويمكن تصنيف أهم المعاهد والمدارس التعليمية في القدس في العصر العثماني إلى الفئات الآتية:

1- **المساجد:** يُعَّد المسجد الأقصى من أهم المراكز التعليمية وأقدمها، إذ لم ينقطع التدريس فيه إلا خلال مدة احتلال الفرنجة للقدس من عام 1098 وحتى 1187م، كما كانت وظيفة التدريس فيها مقتصرة في الغالب على عائلات معينة يتوارثها الأبناء عن الآباء، أما مصادر الإنفاق على المدرسين في المسجد الأقصى فقد كانت متنوعة منها الصرة الرومية (العثمانيون)، والصرة المصرية، والمساعدات العينية المقدمة من أوقاف خاصكي سلطان، ومن المال الخاص للسلطان العثماني.[2]

وقد درَّس في المسجد الأقصى كبار العلماء والذين كان لهم باع طويل في تدريس القرآن الكريم والتفسير كصالح أفندي الشهير بابن قاضي السلط، وخليل عبد اللطيف الشهابين وعبد الرحمن المبارك، وكذلك محمد أفندي ابن المرحوم أحمد أفندي الذي تولى وظيفة قراءة صحيح البخاري، وعمران الخزرجي الذي تولى قراءة القرآن بمسجد الصخرة المشرفة[3].

---

(1) كارين أرمسترونج، المرجع السابق، ص564.

(2) كامل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، عمّان 1981، ص41.

(3) زياد المدني، المرجع السابق، ص265.

وكان المسجد الأقصى محط اهتمام السلاطين العثمانيين، فقد أُعيد ترميم قبة الصخرة بواسطة السلطان محمد الثالث عام 1597م. والسلطان أحمد الأول عام 1603م. والسلطان مصطفى الأول عام 1617م. فعندما زار الرحالة التركي أوليا الجلبي القدس عام 1648م سحرته القلعة والحرم. فقد وجد أن هناك ثمانمئة إمام وواعظ يعملون في الحرم والمدارس المجاورة ويتقاضون مرتبات، وأيضاً كان هناك خمسون مؤذناً وعدد كبير من مرتلي القرآن.[1]

ونستطيع القول: إنَّ المسجد الأقصى كان مركزاً للإشعاع الثقافي والعلمي، حيث كانت حلقات العلم والدراسة متاحة للكبار والصغار تنعقد في شتى جوانبه، ولم تكن مهمته فقط تقتصر على إقامة الصلوات والشعائر الدينية، بل كان الأقصى يحفل بالنشاطات السياسية والاجتماعية.

ولم يقتصر التدريس في المساجد على مسجدي الأقصى والصخرة، بل امتد إلى مساجد أخرى مثل مسجد سنان باشا الذي درَّس فيه فضل الدين آغا العسلي، وإلى الكتاتيب التي كانت تقام بالقرب من المساجد، أو في منزل الشيخ المعلم، ويبدأ الطفل في سن مبكرة إذ يتعلم القرآن والقراءة والكتابة والحساب، وكان يُطلق على المعلم في الكتاتيب لقب الشيخ أو المؤدب وعندما ينتهي الطالب من دراسته في الكتَّاب كانت تُقام له حفلة تنشد فيها المدائح النبوية مع وليمة غداء أو عشاء بهذه المناسبة.[2]

---

(1) كارين ارمسترونج، المرجع السابق، ص538.

(2) إحسان الدين أوغلو، الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة، نقله إلى العربية صالح سعداوي، عمَّان، ط1، 1991، ص309.

2- المدارس الدينية:

ارتبط إنشاء المدارس في القدس بأسباب دينية وسياسية، فقد ازداد الإقبال على إنشاء المدارس لتعليم المذاهب السنية، ولتقرب السلاطين من الرعية لنيل رضاهم، في منتصف القرن الثامن عشر كان عدد العلماء في القدس أكبر من عددهم في القرن السابع عشر، لكن المدارس أخذت في التدهور السريع، فلم يبق هناك سوى خمس وثلاثين مدرسة، نظراً إلى الوضع الاقتصادي المتدهور وفقر المدينة وقلة واردات الأوقاف المخصصة للإنفاق عليها، ومن المدارس التي تلاشت لهذه الأسباب المدرسة التنكزية التي استخدمت محكمة القدس مبانيها مقراً لها.[1]

وكانت المدارس داخلية، تتكون عادة من طابقين يخصص الطابق الأول للتدريس في حين يخصص الطابق الثاني لسكن الطلاب والمدرسين، وتعدّ وظيفة شيخ المدرسة من أرفع الوظائف إذ كان يختار لها أحد كبار العلماء ذوي السمعة الطيبة وكان يُخاطب بأجل الألقاب العلمية مثل (عمدة السادات الفخام) و(حدوثة العلم) السلطانية مثل عمدة السادات الفخام جار الله أفندي الذي عين في وظيفة المشيخة في المدرسة الموصلية.[2]

أمَّا الوظائف الإدارية في المدارس فهي متعددة يأتي على رأسها وظيفة الناظر أو المدير العام للمدرسة، وأهم واجباته إدارة شؤونها ويختار من بين العلماء القادرين على التدريس، فالناظر كان أحياناً يتولى مشيخة المدرسة فضلاً عن الإدارة، ومن هؤلاء بالقدس علم الدين

---

(1) زياد المدني، المرجع السابق، ص266.

(2) العسلي، المرجع السابق، ص51.

العلمي الذي تولى مشيخة المدرسة المنجكية. أما الوظائف الإدارية الأخرى فهي الإمام والمؤذن والسقا والفراش والشغّال والبواب والكنّاس.

أما أهم المدارس الدينية في القدس فكانت المدرسة الباسطية والتي أوقفها القاضي زين عبد الباسط ابن خليل الدمشقي، والمدرسة الحمراء التي تولى مشيختها أسرة العلمي، والمدرسة الصلاحية والتي تعدّ من أهم مدارس القدس وأقدمها فقد بنيت في عهد السلطان صلاح الدين والتي تنسب إليه وتقع بالقرب من باب الأسباط بالقدس وقد تنوعت العلوم الدينية التي كانت تُدرَّس في هذه المدرسة كالقرآن الكريم والحديث الشريف والفقه.[1]

وقد أدت هذه المدرسة خدمات جليلة للعلم وطلابه، إذ درس فيها عدد كبير من طلاب العلم الذين وفدوا إليها من أقاليم ومدن شتى، ودرسوا على شيوخها الذين تمتعوا بمكانة علمية مرموقة ، فقصدهم طلاب العلم ونهلوا من علمهم الذي اشتهروا به في الآفاق.

كما كان بالقدس أنواع من المؤسسات التعليمية الصوفية كالخوانق والربط والزوايا وهي بمنزلة مدارس تدرس فيها أصول الصوفية وهي نوع من الحياة الروحية نشأت في صدر الإسلام اختلطت فيها ألوان الرياضة ومجاهدة النفس والفلسفة الروحية، وقد شجع العثمانيون الطرائق الصوفية، وأصبحت المناطق المجاورة للحرم مليئة بالمتصوفين، كما برزت عائلات مقدسية عُرفت بتصوفها، مثل عائلتي العلمي والدجاني، وكانت أهم الطرائق الصوفية في القدس المولوية والنقشبندية والخلوتية وكان لها أتباع وزوايا وتكايا، وقد اقتصرت

---

(1) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل عمّان 1973، ج2، ص247.

المؤسسات التعليمية كما أسلفنا على ثلاثة أنواع من المدارس وهي الخوانق والربط والزوايا.[1]

وكانت أول (خانقاه) وهي كلمة فارسية وتعني مكان عبادة المتصوف تنشأ في القدس هي الخانقاه الصلاحية قرب كنيسة القيامة، وكان لها دور في الحياة العلمية في القدس حيث قرأ فيها المتصوفة القرآن وقام بالتدريس فيها مشايخ الصوفية الذين يعينون من السلطان العثماني.

أما الرُبط فقد استخدمها المتصوفون في القدس مكاناً للجهاد وضد النفس كما اتخذوها أماكن للمطالعة والكتابة بسبب وجود المكتبات فيها ومن أهم ربط القدس الرباط المنصوري الذي أنشأه الملك المنصور قلاوون عام 1282، ورباط الأمير بيرم جاويش الذي أنشأه في عام 1540 في عهد السلطان سليمان القانوني، أما الزوايا فقد كانت تقام فيها الأذكار وكان لها مغزى اجتماعي حيث يلتقي فيها أبناء البلد الواحد ممن كانوا في القدس كالمغاربة والهنود وغيرهم.

وأهم الزوايا الزاوية البسطامية في حارة المشارقة والزاوية النقشبندية، عند باب الغوانمة والزاوية القادرية نسبة لمؤسسها عبد القادر الجيلاني.[2]

كما أقيمت عدة قباب تذكارية في مدينة القدس أغلبها داخل الحرم الشريف ووظفت في بعض الأغراض الثقافية والتعليمية؛ ومن أهمها قبة المعراج، والقبة النحوية، وقبة سليمان، وقبة الأرواح، وقبة الخضر، وقبة يوسف.

---

(1) زياد المدني، المرجع السابق، ص275.

(2) مصطفى الدباغ، المرجع السابق، ج9، ص267.

3- المدارس الحكومية والخاصة:

شهدت القدس في القرن التاسع عشر ولاسيّما عصر التنظيمات تطوراً فكرياً وثقافياً وقد مهد حكم محمد علي لفلسطين (1831-1840) لهذا التطور وكانت نقطة تحول في تاريخ القدس، إذ شهد الحكم المصري شيئاً من تحديث الإدارة، ونشر روح التسامح، وطبَّق أفكاراً تحديثية في أسلوب الحياة في القدس عندما سمح بدخول التأثيرات الأوروبية التي زادت من النشاط الثقافي، وشعرت الدولة العثمانية بضرورة إنشاء مدارس حكومية لتدريب التلاميذ وتعليمهم حسب النظم الحديثة، فبادرت الدولة إلى إنشاء المكاتب الإعدادية، وصدرت أول حولية لنظارة المعارف العمومية العثمانية عام 1898 وأشارت إلى ضرورة تطوير المناهج في القدس بما يكفل تطبيق أحدث التطورات التربوية مع الحفاظ على قيمنا الروحية والقومية والاهتمام بالتربية البدنية والعسكرية، وضم المكتب الإعدادي في القدس في عام 1896 81 طالباً، وكان هناك أربع مدارس للطوائف المسيحية ثلاث إعدادية، وواحدة لكل من الروم والأرمن واللاتين ضمت 104 طلاب، والرابعة للروم بالمرحلة الأساسية ضمت 140 طالباً.[1]

أما المدارس الأجنبية فقد كانت تابعة لمؤسسات تبشيرية مسيحية، فكان في القدس مدارس للفرنسيسكان يتعلم فيها التلاميذ القراءة والكتابة بالعربية والإيطالية واللاتينية، وأيضاً كان هناك مدرسة حياكة للفتيات العربيات، كما أنشأت النساء الألمانيات مدرسة لليهود قرب كنيسة ضريح المسيح لتعليم صبية اليهود الحرف، وفتحت الطائفة اليونانية الأرثوذكسية مدرسة للصبيان العرب على أساس منهج

(1) انظر مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين ج 10، ص135.

أشمل وأحدث من ذلك الذي كان يدَّرس في مدرسة ((القدس المخلص))، كما أسس الدكتور الألماني شنيلر (Schneller) سنة 1860 دار الأيتام السورية والتي كانت عبارة عن معهد لتعليم الأيتام الصنائع واللغات، ضمت نحو 700 تلميذاً، وكان فيها معامل للخزف وتعلم النجارة والحدادة، كما كان لليهود في القدس مدارس تعلم التوراة والتلمود ومدارس تعلم العلوم الحديثة، وأشهر مدارسهم في القدس كانت (مدرسة الأليانس) ومدرسة بيت ساليل ومدرسة لاميل وغيرها.[1]

وقد تعددت المدارس والمعاهد العلمية في القدس، من حكومية وطنية وأجنبية، وقد تابع الطلاب المتفوقون من هذه المدارس دراساتهم العليا في جامعات استانبول وبيروت، وبرز منهم علماء تولوا مناصب إدارية هامة من أمثال يوسف الخالدي رئيس بلدية القدس وعلي الريحاوي الشاعر الفصيح وإسعاف النشاشيبي أديب ولغوي وخليل السكاكيني الكاتب اللغوي في علم اللسان وحنا أفندي بطاطو الأديب المقدسي، وغيرهم من الكتاب والأدباء الكبار.

رابعاً- دور المكتبات في الحفاظ على التراث المقدسي:

كانت المكتبات الأولى التي عرفتها القدس هي مكتبات الأديرة المسيحية وكان بعضها موجوداً في فلسطين قبل دخول الإسلام إليها، كما وجدت المكتبات في الجوامع والمساجد والزوايا بعد الفتح العربي الإسلامي، كان من أقدم مكتبات المدارس مكتبة دار العلم الفاطمية في القدس التي أنشأها الحاكم بأمر الله في القرن الحادي

(1) Lexikon Arabische Welt, Gunther Barthel (Hrsg) Darmstadt 1990. S.307.

عشر الميلادي، على غرار مكتبة دار العلم الفاطمية في القاهرة.[1]

وقد عرفت القدس خلال الحكم العثماني نوعين من المكتبات، هما المكتبات العامة، والمكتبات الخاصة. أمّا المكتبات العامة فتشير بعض المصادر إلى وجود نحو خمسين مكتبة في مدينة القدس امتلأت خزائنها بآلاف الكتب المنوعة، وأهم هذه المكتبات مكتبة المسجد الأقصى، ومكتبات المدارس، ومكتبات الأديرة، وتعدّ مكتبة المسجد الأقصى من أهم دور الكتب في القدس، إذ كان المسجد كغيره من المساجد الكبيرة مركزاً للحياة العلمية، ومدرسة لتدريس العلوم الدينية وتحتوي مكتبة المسجد الأقصى على عدد كبير من الكتب في مختلف الموضوعات، مثل اللغة والحساب والدين والتاريخ، كما تحتوي عدداً من نسخ القرآن الكريم التي وقفها رجال الدين الإسلامي، وأفراد الهيئة الحاكمة.

وجاء في حولية لنظارة المعارف العثمانية (أن في بيت القدس مكتبة تدعى المكتبة الخالدية في حي السلسلة أنشئت عام 1317هـ/1900م جمعت 1318 كتاباً أقامتها والدة الحاج راغب الخالدي).[2]

أما مكتبات المدارس فكانت عبارة عن قاعة مخصصة للكتب في كل مدرسة، يشرف عليها أحد الموظفين، وقد كانت في المدرسة الأمينية قاعة مخصصة لكتب الشيخ محمد صالح الإمام، شيخ المدرسة في القرن التاسع عشر الميلادي. وأما مكتبات الأديرة فقد

---

(1) صلاح الدين المنجد، المخطوطات العربية في فلسطين، بيروت، دار الكتاب الجديد، 1972، ص24.

(2) انظر مصطفى الدباغ، ج10، ص137.

أشارت سجلات المحاكم الشرعية في القدس إلى وجودها حيث وجدت مكتبة في دير السلطان كتبت بلغة الأحباش.[1]

وما يخص المكتبات الخاصة فكانت لدى الأفراد من كبار العلماء والأعيان والمدرسين ثم العائلات في القدس مكتبات خاصة تتناول العلوم الدينية واللغة والفلسفة والتاريخ والطب، ومن هذه المكتبات مكتبة عبد الحي جار الله، وكانت تضم كتباً في الفقه والحديث والفلسفة والتاريخ واللغة والطب، ومكتبة الشيخ سليمان أفندي المدرس ومكتبة فتحي صالح أفندي ومكتبة حسين أفندي نقيب الإشراف، ومكتبة محمد نسيبة ومكتبة خليل الجاعوني. كما كانت في القدس مكتبات مهمة مثل مكتبة أبي السعود المقدسية ومكتبة آل البديري ومكتبة آل قطينة وسواها، وكانت تضم آلاف الكتب ومئات المخطوطات.

وكانت في القدس مكتبات تابعة للطوائف المسيحية ومن أقدمها مكتبة القديس المخلص والتي تضم ما يزيد على 25 ألف كتاب بلغات مختلفة، وكذلك المكتبة البطريكية الأرثوذكسية والمكتبة الإنجيلية وغيرها، والتي كان لها دور هام في الحفاظ على التراث المقدسي.

وحسب المؤرخ شوقي شعث (كان في القدس قبل النكبة عدد كبير من المكتبات العامة والخاصة بلغ عددها ما يربو على تسع وأربعين مكتبة وقد تأسست أقدمها عام 558م. وهي مكتبة القديس المخلص وآخرها تأسس عام 1944 وهي مكتبة قلم المطبوعات

---

(1) زيادة المدني، المرجع السابق، ص282.

بحكومة فلسطين، ومن تلك المكتبات فضلاً عن المكتبتين المذكورتين أعلاه: مكتبة الخليلي (1725)، ومكتبة القديس جورج (1890)، والمكتبة الإنجيلية الأثرية الفرنسية (1890)، والمكتبة الخالدية (1900)، ومكتبة المدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية (1801)، ومكتبة المعهد الألماني الإنجيلي (1902)، ومكتبة الآثار البريطانية (1920)).[1]

تعرضت هذه المكتبات في عام 1948 إلى السرقة والتدمير على يد الصهاينة، وكذلك فعلوا بمكتبات القدس الشرقية بعد نكسة 1967، وقامت بعض المؤسسات الفلسطينية وعائلة الخالدي بالتصدي للأطماع الصهيونية والحفاظ على التراث المخطوط في القدس وحمايته وصنع فهارس مفصلة لجميع المخطوطات.[2]

خامساً- أهمية حركة التعريب والطباعة والصحافة المقدسية:

أسهم عدد من المثقفين والمبدعين في القدس بنصيب كبير في الترجمة منذ وقت مبكر من النهضة العربية وأغنوا الحركة الثقافية فيها، وقد بدأ نشاطهم في هذا الميدان منذ سنة 1860، ومن بين الترجمات ما قام به يوسف دباس اليافي بترجمة فرانسيسكو سوافيواس ((مرشد الأولاد))، وأخذت حركة التعريب تتقدم بتقدم المجتمع المقدسي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. كما عرَّب بندلي صليبا الجوزي كتاب (الأمومة عند العرب) عن اللغة الألمانية

---

(1) شوقي شعث، القدس الشريف، تقديم خيري الذهبي، وزارة الثقافة ، دمشق 2009، ص236.

(2) عائلة الخالدي من أقدم العائلات الفلسطينية في القدس، تنسب لخالد بن الوليد، تولت مناصب القضاء والإفتاء والتدريس في القدس منذ القرن الثامن الهجري.

وطبعه في قازان عام 1902.[1]

ومنذ عهد إبراهيم باشا ظهرت عدة أنواع من الصحف أثرت في الحياة الثقافية في القدس، ونشأ مناخ ملائم للترجمة في فلسطين، ومن أهم الصحف التي أسهمت في تنشيط حركة التعريب مجلة ((النفائس العصرية) لخليل بيدس الذي بذل جهداً كبيراً في الترجمة عن اللغة الروسية فقد ترجم ما لا يقل عن عشرة كتب ما بين عامي 1898 و 1919، فضلاً عن ترجمة الروايات القصيرة التي كان ينشرها في مجلته، كما ترجم انطوان بلان أحد أساتذة المدرسة الروسية في القاهرة الذي عرَّب رواية ((سبيل الحب)) عام 1912 وحكايات ((سياحة في عالم الخيال)) وخواطر من كتاب ((طريق الخيال)) لتولستوي، وترجم العديد من الكتاب أمثال سليمان بولس وإبراهيم جابر وعبد الكريم سمعان ولطف الله الخوري الصراف والسيدة كلثوم عواد روايات ومقالات عديدة عن الرواية نشروها في ((النفائس العصرية))، كما أسهمت مدارس الإرساليات الروسية في الناصرة وبيت جالا في رفد حركة التعريب، فترجم خريجها سليم تبعين عن تولستوي وبوشكين وغوركي كتباً رائعة ككتاب ((حكم النبي محمد)) و((محكمة جهنم)) لتولستوي.[2]

كما ترجم جبران مطر عن الألمانية عدة قصص وحكايات. وشارك في التعريب من الألمانية بندلي الجوزي والياس نصر الله الذي ترجم رواية ((ناثان الحكيم)) للكاتب الألماني لسنغ وطبعها في مطبعة دار الأيتام في القدس.

---

(1) نضال علما، الترجمة الفلسطينية ومطابعها المقدسية في: المعارج (العدد107) 2008، ص222.

(2) نضال علما، المرجع السابق، ص223.

وقد اهتمت الطائفة الأرثوذكسية في القدس باللغة اليونانية، فترجم توفيق اليازجي قصائد عدة للشاعر اليوناني يوانس بوليتي، وكان من البديهي أن تكون للقدس صلة باللغة التركية (العثمانية) التي كانت تكتب بالأحرف العربية) وقد ترجم عبد الله مخلص كتاب نامق كمال ((سيرة الفاتح السلطان محمد الثاني))[1].

ويرى المتتبع لحركة الترجمة في فلسطين أنّ معظم أعمالها طُبعت في مطابع القدس، وكانت الكنائس المسيحية قد اشترت بعض المطابع في عام 1862 من أوروبا، وكان لدار الأيتام الإسلامية بالقدس مطبعتها الخاصة، وقد أثرت الصحف وحركة الترجمة والطباعة المقدسية في حركة الفكر والثقافة ودفعتها إلى الأمام، وعكست مدى عزم أهل القدس على التفتح والتنوع الثقافي والحداثة.

فقد أصبحت القدس مركزاً ثقافياً وإعلامياً خلال العهدين العثماني والبريطاني. وظهرت فيها صحف حكومية، من أهم تلك الصحف:

1- **القدس الشريف:** تأسست هذه الجريدة كجريدة حكومية عام 1876، وكان يرأس تحرير القسم العربي من الجريدة الشيخ علي الريحاوي، أما القسم التركي فقد رأسه عبد السلام كمال وكانت تصدر مرة واحدة في الشهر باللغتين العربية والتركية.

2- **الغزال:** تأسست عام 1876 كجريدة رسمية أيضاً تصدر مرة واحدة في الشهر يرأس تحريرها الشيخ علي الريحاوي.

3- **الأصمعي:** وهي مجلة أدبية اجتماعية، وكانت تصدر في القدس

---

(1) المرجع السابق، ص224.

ويافا مرتين في الشهر بإشراف الأستاذ حنا عبد الله العيسى.

4- **سورية الجنوبية:** كانت تصدر بالقدس بإشراف الأستاذ المؤرخ عارف العارف ومحمد حسن البديري عام 1919.

5- **الدستور:** صدرت بالقدس عام 1913 بإشراف خليل السكاكيني.[1]

هذا إلى جانب عدد آخر من الصحف والمجلات. ومما ساعد على انتشار الصحافة في القدس إنشاء مطابع خاصة كمطبعة جورج حبيب (1894)، والمطبعة البروتستانتية (1867).

وبعد عام 1908 انتشرت المطابع، وأصبح لكل جريدة مطبعة خاصة بها ومنها النفير، ويعدُّ عام 1908 نقطة انطلاق الصحافة العربية، وذلك لأن الدستور العثماني ضمن حرية الصحافة وسمح بإصدارها حيث بلغت الصحف في ذلك العام 15 صحيفة منها 12 في القدس، وقد أدّت تلك الصحف دوراً بارزاً في الكشف عن الأهداف الحقيقية للصهيونية لتهويد فلسطين، كما قامت بحملات ضد الهجرة اليهودية.[2]

سادساً: أشهر أعلام ورواد النهضة العلمية في القدس:

أنجبت القدس الكثير من الأعلام في مختلف العلوم والفنون، فكانوا رواد النهضة الحديثة وحملة شعلتها، إذ ظهرت بوادر اليقظة العربية والقومية والتطور الفكري منذ مطلع القرن التاسع عشر، **ولاسيّما عند الطبقة المثقفة الآخذة بالتغيير وتبديل الوضع الراهن بعد أن**

---

(1) – انظر شوقي شعث، المرجع السابق، ص239.

(2) – انظر الموسوعة الفلسطينية، ج3، ص8.

ضاقوا ذرعاً من تخلف بلدهم، ومن هؤلاء الأعلام:

– وفاء العلمي: (توفي سنة 1834).

تولت عائلة العلمي في القدس وظائف إدارية مهمة في القرن التاسع عشر، فقد تولى وفاء بن نجم الدين العلمي مشيخة السادة الصوفية في القدس، ومتولي أوقاف القدس.

كما عُين مرات مدداً قصيرة نقيباً لأشراف القدس، وعُيّن في وظيفة ناظر الحرمين الشريفين منذ سنة 1824- 1825 ، وكان لهذه الوظيفة أهمية كبيرة من الناحية الاقتصادية ونفوذ واسع. وقد هاجر من القدس سنة 1844 مصطفى بن محمد بن وفاء العلمي إلى غزة، حين عين قاضياً فيها واستقر هناك، كما ظهر من هذه العائلة فرع في اللد باسم الجد سعودي العلمي، وهناك فروع لآل العلمي في دمشق وحلب وحمص وطرابلس الشام.[1]

محمد أبو السعود: (1735 – 1813).

عالم أزهري، مفتي الشافعية، وشيخ مشايخ الطرائق الصوفية الخلوتية والقادرية في القدس، سافر في آخر حياته إلى الأستانة بطلب من شيخ الإسلام فتوفي هناك ودفن فيها.

أصبح محمد أبو السعود أحد علماء القدس ذوي النفوذ وقد برز ذلك في أثناء الحملة الفرنسية على فلسطين، حيث وردت الفرمانات والمراسيم باسم ثلاثة من علماء القدس البارزين وهم المفتي الحنفي حسن

---

(1) انظر نبيه عبد ربه، التلاقي المبارك في القدس، مجلة المعارج، العدد 107، ص174.

الحسيني، والشيخ محمد البديري، والشيخ محمد أبو السعود.[1]

أحمد سامح الخالدي: (1869–1915).

ولد الخالدي في القدس في محلة باب السلسلة، حيث تجمّع منازل آل الخالدي واشتهرت هذه العائلة بالعلم والخدمة في المحاكم الشرعية في القدس وخارجها عدة قرون.

بدأ الخالدي عمله مفتشاً في إدارة معارف فلسطين، لكن أهميته اتضحت حين عمل في إدارة الكلية العربية (دار المعلمين) منذ عام 1925 – 1948، له مؤلفات كثيرة في التربية وعلم النفس والتاريخ، له كتاب هام عن رجال الحكم والإدارة في فلسطين منذ العهد الراشدي حتى القرن الرابع عشر الهجري طبع في القدس في كتاب، ثم كتاب (أهل العلم بين مصر وفلسطين) وطبع في القدس عام 1946، وقدم لنا كتابه عن (الرحلات من دمشق إلى القدس) الذي نشرته وزارة الثقافة في سورية عام 2009 بمناسبة اختيار القدس عاصمة الثقافة العربية، وهو كتاب رائع نتعرف من خلاله أهمية القدس والأماكن المقدسة فيها.[2]

طاهر الحسيني: (توفي 1866).

مفتي الحنفية في القدس مدة ثلاثة عقود في النصف الأول من القرن التاسع عشر، أحد علمائها ومدرسيها البارزين، درس في الأزهر وتعرف إلى كبار العلماء في القاهرة أمثال عبد الله الشرقاوي وحسن

---

(1) – المرجع السابق، ص175.

(2) – أحمد سامح الخالدي، رحلات من دمشق إلى القدس، تقديم خيري الذهبي – وزارة الثقافة، دمشق 2009، ص12.

العطار وعبد الرحمن الجبرتي. ومما يدل على سعة علمه اهتمامه بالكتب والمخطوطات وطلبه النادر منها من القاهرة. وقد عُيِّن مدرساً لصحيح البخاري في قبة الصخرة عام 1812.أما وظيفة الإفتاء فانتقلت رسمياً في تلك الحقبة إلى ابنه مصطفى الذي نقلها بدوره إلى ابنه طاهر ومنه إلى ولديه كامل والحاج أمين الحسيني.[1]

عارف العارف: (1892 – 1973).

مؤرخ وكاتب فلسطيني مثقف وباحث في تاريخ القضية الفلسطينية، له عشرات الكتب عن تاريخ القدس وغزة وبئر السبع، عاصر الدولة العثمانية وشهد سقوطها وواكب أحداث القرن العشرين، ولد عارف بالقدس وأكمل الدراسة الثانوية والجامعية في استانبول، ثم حصل على شهادة في الإدارة والسياسة والاقتصاد من المكتب الملكي وعين في ديوان الترجمة بوزارة الخارجية في استانبول، وقد شارك في إصدار جريدة (سورية الجنوبية)، تسلم مناصب عديدة منها قائم مقام في رام الله ورئيساً لبلدية القدس عام 1949، ثم وزيراً للأشغال في الأردن عام 1955، ولكنه استقال ليتفرغ للنضال من أجل فلسطين بالقلم.

أتقن عارف العارف لغات عديدة منها: الإنكليزية والتركية والفرنسية والألمانية والعبرية. وخصّص ثقافته ومعرفته وعلمه للدفاع عن فلسطين أو سورية الجنوبية، كما كان له أن يسميها.[2]

---

(1) انظر نبيه عبد ربه، مرجع سابق، ص177.

(2) عارف العارف، تاريخ الحرم القدسي 1361 هـ – 1947م، تقديم خيري الذهبي، وزارة الثقافة – دمشق 2009، ص13–15، والموسوعة العربية، م12، ص732.

بندلي الجوزي: (1871 – 1942).

رائد علم الاستشراق في روسيا، اشتهر مؤرخاً عربياً وباحثاً لغوياً. تولى كرسي اللغة العربية في جامعة قازان حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. ولد الجوزي في مدينة القدس تلقى علومه الابتدائية وقسماً من دراسة الثانوية في دير المصلبة في القسم الغربي من القدس. وتفوق في دراسته الثانوية فأُرْسِلَ سنة 1891 لاستكمال علومه الدينية في الأكاديمية الدينية في موسكو. ولم يرغب في الاستمرار هناك. فانتقل إلى أكاديمية قازان سنة 1895، وحصل منها على درجة الماجستير في اللغة العربية والدراسات الإسلامية 1899. عاد البندلي إلى القدس سنة 1900 ليقيم فيها لكن السلطات العثمانية أجبرته على مغادرة القدس والعودة إلى روسيا، وهناك تزوج وعمل أستاذاً للعربية، عاد إلى القدس في سنة 1909 في بعثة علمية مدة عام كامل أشرف خلاله على الرحلة العلمية للطلاب الروس إلى فلسطين. نشر بندلي الجوزي الأفكار التحريرية وحرض الناس على كسر القيود، والثورة على أوضاعهم، ومن مؤلفاته كتاب (الحركات الفكرية في الإسلام) الذي نال بفضله درجة الدكتوراه من جامعة موسكو، وله مؤلفات بالعربية والروسية بلغت نحو ستة وعشرين مؤلفاً، وترك تسع مخطوطات بالروسية ومخطوطين بالعربية.[1]

توفيق بشارة كنعان: (1882 – 1964).

ولد توفيق كنعان في بلدة بيت جالا، درس الابتدائية في مدرسة (شنيلر) بالقدس أمضى ثلاث سنوات ونصف في دار المعلمين، ثم التحق

(1) انظر نبيه عبد ربه، المرجع السابق، ص183.

بالجامعة الأمريكية في بيروت فتخرج طبيباً عام 1905، ثم عاد إلى القدس ليعمل مساعداً في المشفى الألماني.

وعمل طبيباً في الجيش العثماني بمدينة الناصرة خلال الحرب العالمية الأولى ثم عاد إلى عمله طبيباً في المشفى الألماني بالقدس (1918 – 1947). وأصبح مديراً لمستشفى أوغستا فكتوريا الألماني في القدس عام 1950. كتب عشرات المقالات التي توضح حقيقة القضية الفلسطينية، ومن مؤلفاته: (الموت أم الحياة) عام 1908م (الطب الشعبي) عام 1914، و(أولياء المسلمين ومقدساتهم) عام 1924، و(الصراع في أرض السلام) عام 1938.[1]

موسى خليل البديري: (1883–1937).

أحد علماء القدس الكبار، ولد بمنزل في القدس القديمة بحي باب خان الزيت غرب الحرم القدسي، درس مختلف العلوم في أروقة المسجد الأقصى، سافر إلى الأستانة حيث أتم دراسته للعلوم الإسلامية فضلاً عن اللغة التركية، حصل على شهادة تؤهله للعمل في سلك القضاء، ولي منصب قاضي محكمة القدس القديمة سنوات طويلة، اشترك بالمقاومة بقيادة الشيخ عز الدين القسام، شكل الشيخ موسى البديري جمعية سرية لمقاطعة البضائع البريطانية والصهيونية، ومنع التجار العرب من معاملة تجار اليهود المهاجرين من أوربا وأمريكا إلى فلسطين، استشهد الشيخ موسى سنة 1937 في القدس عند باب الخليل وهو يدافع لمنع الجنود اليهود من دخول القدس القديمة.[2]

---

(1) المرجع السابق، ص179.

(2) المرجع السابق، ص179.

هذه نماذج من علماء القدس ورجالاتها ومثقفيها الكبار على سبيل المثال لا الحصر، أثروا الحياة الثقافية والفكرية في القدس، وقدموا التضحيات في سبيل الوطن، وأسهموا في الحفاظ على التراث المقدسي.

خاتمـــة :

ألقى هذا البحث الضوء على أهمية الحياة الثقافية والتعليمية في القدس إبَّان الحكم العثماني، وأظهر باختصار دور المدينة في صنع الثقافة بكل أطيافها، كما أوضح البعد التاريخي لمدينة القدس على أساس كونها من أهم مراكز الإشعاع الثقافي في المشرق العربي، والذي امتد تأثيره إلى العالم الإسلامي لما للقدس من أهمية دينية مقدسة.

خلصت الدراسة إلى أهمية دور المسجد الأقصى في القدس بوصفه مركزاً دينياً وعلمياً في إغناء الحياة الثقافية والتعليمية لدى المجتمع المقدسي، وكانت له أهميته الكبرى في التأثير في الجوانب الاجتماعية الأخرى، فتنامى دور الاهتمام بظاهرة الأوقاف وبناء المؤسسات الخيرية.

ومن الناحية العلمية فإن سيطرة العثمانيين على الأوقاف والمساجد ووظائف التدريس أدى في النهاية إلى انهيار الحركة العلمية بسبب استيلائهم على واردات الأوقاف التي كانت مصدر التمويل الرئيسي للحركة العلمية في عصر المماليك، وبسبب جهل المدرسين العثمانيين بالعلوم الدينية نتيجة عدم تمكنهم من العربية، أضف إلى ذلك التحجر الفكري وطبيعة الحكم الجائر على مدى أربعة قرون.

وإن تطور الوضع الثقافي والتعليمي والوعي الاجتماعي على يد حملة العقول النيرة رواد النهضة العربية في نهاية القرن التاسع عشر، وتوفر أدوات المعرفة كالمطابع والصحف والمدارس الرسمية، شكلت القدس سياجاً ثقافياً معرفياً قدمت من خلاله الكثيرين من الأعلام ورواد النهضة في مجالات العلوم المختلفة.